العلاقات بين المغرب والضفة الشمالية للبحر المتوسط الغربي من خلال وثائق عربية وسيطية[1]

أحمد عزّاوي ، القنيطرة

في البداية هناك بعض الملاحظات عن الوثائق والمراسلات التي تمّت دراستها من طرفنا خلال العصرين الموحدي والمريني:

1) أنّ الوثائق المعنيّة تتميّز بكونها رسائل أو عقوداً صادرة عن الجهة الإسلامية الرسمية أي أنها ديوانية (مخزنية)[2].

2) أنّ المجموعات الوثائقية التي اعتمدناها منها ما هي منسوخة (مخطوطة و مطبوعة)، ومنها ما هي وثائق أصلية.

3) أنّ مخطوطات العصر الوسيط ، تغلب عليها آثار الأرَضة والرطوبة والبتر إن كانت أصلية أو قريبة من الأصل، وكلما تكرّر نسخها خفّت هذه العوامل لكن تكثر بها أخطاء النّسْخ. هذا إضافة إلى تنوّع الخطوط وأحياناً تشرُّبُ الأوراق غير الجيّدة للمداد فتصعب قراءتها.

4) أنّ دراسة نصوص الرسائل خضعت لنظرة شمولية وحيادية، فالواجب في نظرنا ترك المجال للنص ليفصح عن مكنوناته السياسية والحضارية... من غير تعسّف عليه ولا توجيهه لخدمة عنصر معيّن (مذهبي، اقتصادي...) فهناك تفاوت بين عطاءات الرسائل بالنسبة لهذا العنصر أو ذاك على الأقل بالنسبة لقراءتنا الأولية لها، فلا نحكم عليها بالجمود ، ولا نخضعها لتفسير أو إديولوجية معيّنة.

ننتقل الآن إلى ذكر المجموعات الكبرى للرسائل خصوصاً خلال الفترتين الموحدية والمرينية.

أولاً : مجموعات الترسيل

1 ـ منذ العصر المرابطي الذي يمتدّ بين النصف الثاني من القرن 5 وأواسط 6 هـ/11 – 12م، ظهر مجموعة من الكتّاب الأدباء المهتمّين بالترسيل أي بجمع ما أنتجوه من رسائل أو ما جمعوه منها، من بينهم الفتح بن خاقان في كتابه "قلائد العقيان"، وهو كتاب منشور، وأيضاً ابن أبي الخصال الذي نشر مجموعة من رسائله الباحثُ محمد رضوان الداية في دمشق سنة 1979 وذلك تحت عنوان "رسائل ابن أبي الخصال"... وقام باحثون آخرون بجمع ونشر مجموعات متفرقة من رسائل ووثائق العصر المرابطي أمثال الأستاذين المصريين حسين مؤنس ومحمود علي مكّي حيث نشرا مجموعة منها في

---

[1]- عرض ألقي في ندوة : المغرب الأقصى وحوض المتوسط الغربي من ق4 –11م نظّمت بجامعة سيدي محمد بن عبد الله – كلية الآداب، قاس (المغرب) ، في 1- 2 / 12 / 2003. نشر بتولوز سنة 2007 بتنسيق الباحث الفرنسي **الأستاذ بيير سيناك** (P. Cenac) **تحت عنوان** Le Maghreb , Al Andalus et la Méditerranée Occidentale **(VIIIe - XIIIe Siècle) TOULOUSE. 2007**

[2]- لم نهمل بعض الرسائل الإخوانية (الشخصية) المحدودة التي وردت فيها أحداث تاريخية هامّة.

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. ثمّ قام بعض الباحثين المغاربة بنشر مجموعات أخرى أهمها[3] ما أنجزه الباحث المغربي الأستاذ محمد البركة وهو أحد طلبتنا وخريج جامعة فاس حيث قام بتحقيق ونشر مجموعة هامة من الرسائل المرابطية تحت إشرافنا نال بها شهادة الدكتوراه سنة 2002 ، جمعها من مصادر مختلفة مخطوطة ومطبوعة[4]، وهي تعالج قضايا داخلية وعلاقات المرابطين بجيرانهم القشتاليين والأركونيين[5].

2 ـ بالنسبة للعصر الموحدي

هناك مجموعتان أساسيتان للرسائل منشورتان هما:

ـ المجموعة الأولى، تتكوّن من 37 رسالة نشرها الباحث الفرنسي ليفي بروفنصال Levi (E. Provençal) سنة 1941 تحت عنوان " مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المومنية " أو (Trente Sept lettres Almohades) ، تتعلّق بالنصف الأول من عصر الدولة الموحدية أي عصر الخلفاء الأربعة الأوائل، عبد المومن وابنه يوسف ثم المنصور بن يوسف ثم الناصر بن المنصور. غير أنّ القسم الأكبر من رسائل هذه المجموعة يخصّ عصر عبد المومن مؤسس الدولة (541 - 558هـ)؛ وقد علّق بروفنصال على هذه الرسائل بصورة مقتضبة في مجلة هسبريس (Hespéris) العدد الوحيد لسنة 1941[6]. وهناك مجموعة صغيرة من رسائل الفترة الموحدية المتأخرة نشرها الباحث التونسي محمد الحبيب الهيلة بخصوص إمارة العزفيين بسبتة[7].

ـ المجموعة الثانية الكبرى جمعها وحقّها صاحب هذا المقال تحت عنوان "رسائل موحدية – مجموعة جديدة" (Nouvelles Lettres Almohades) ، وقد تجاوز عدد رسائل هذه المجموعة 200 رسالة. وهي - على عكس مجموع بروفنصال – يزداد عددها بعد عصر عبد المومن وتستمرّ إلى نهاية الدولة الموحدية ، بحيث تتكامل معها وتصحّح بعضها؛ "فالمجموعة الجديدة" تغطّي زمنياً القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجري؛ وقد كانت موضوعَ رسالة لدبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الآداب بالرباط سنة 1985، ثمّ نُشرت بعناية كلية الآداب بالقنيطرة سنة 1995 بالنسبة للجزء الأول الخاص بالنصوص وسنة 2001 بالنسبة للجزء الثاني المتعلّق بدراسة هذه النصوص.

---

[3] - من المغاربة أيضاً الباحثة المغربية حياة قارة التي نشرت مجموعة صغيرة من الرسائل المرابطية سنة 1994 تحت عنوان "رسائل أندلسية جديدة (عصر المرابطين)".

[4] - عنوان الأطروحة " الدولة المرابطية - مساهمة في دراسة نظام الكتابة الدّيوانية"، وهي جزءان، جزء لنصوص الرسائل وجزء آخر للدراسة، وهي مرقونة بكلية الآداب – ظهر المهراز(جامعة سيدي محمد بن عبد الله) ، فاس.

[5] - أعتذر إن كنت لم أسجّل أعمال الباحثين الأوربيين خصوصاً الإسبان في ميدان الوثائق والمراسلات العربية بالنسبة لهذه الفترة.

[6] - كان يصدرها (معهد الدراسات العليا) بالرباط، الذي تطوّر في عصر الاستقلال إلى كلية الآداب.

[7] ـ محمد الحبيب الهيلة : رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، (إنشاء خلف بن عبد العزيز القبتوري)، الرباط 1979.

* **مصادر هذه المجموعة الجديدة** هي في الأساس ثلاثة مخطوطات :

ـ "العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل" للأديب الأندلسي أبي القاسم البلوي، وهو مخطوط عتيق وشديد التأثّر بالأرَضَة، كما أنّه نادر الأخطاء بحيث يظهر أنه النسخة الأصلية للمؤلف أو القريبة من الأصل؛ وهي النسخة الوحيدة الموجودة بالخزانة الحسنية بالرباط (الملكية سابقاً)؛ ورسائله الخاصة بالعصر الموحدي متنوعة تتعلق بالوضع الداخلي والعلاقات مع الإسبان .

ـ مخطوط ضمن مجموع مجهول المؤلف كان في ملك العلاّمة المرحوم الأستاذ محمد المنوني[8]، وتشتمل رسائله على إشارات هامة عن الفترة الموالية مباشرة لمعركة العقاب (Las Navas de Tolosa) الواقعة سنة 609هـ/1212م، بحيث توضّح أوضاع بلاد الأندلس وتشير إلى بداية الفتنة بالبلاد الإسبانية وإلى العلاقة بين الطرفين.

ـ أمّا المخطوط الثالث فيتعلق برسائل تعيين كبار رجال الدولة في الفترة المتأخرة من العصر الموحدي ؛ والمخطوط مبتور البداية والنهاية، وهو كثير الأرضة خاصة في أطرافه وقليل الأخطاء ، ويظهر أنّه مخطوط عتيق ، وهو من ذخائر الخزانة الحسنية بالرباط .

ـ هذا إضافة إلى رسائل محدودة العدد من مخطوطات أخرى مثل "رسائل ابن عميرة" بالخزانة العامة بالرباط، و"زواهر الفكر" للمرادي وهو مخطوط بالإسكوريال يوجد شريط له بالخزانة العامة بالرباط أيضاً[9].

ـ في ميدان علاقات السلم والتجارة مع الإيطاليين تضمّنت "المجموعة الجديدة" قسماً من الرسائل التي نشرها الباحث الإيطالي أماري ميشيل (M . Amari) في القرن 19 في كتابه " I Diplomi Arabi dell Archivio Fiorentino" ، ويتعلق الأمر برسائل متبادلة بين الموحدين وجمهورية بيزا خصوصاً الصادرة عن الحكّام الموحدين بعد امتداد نفوذهم إلى إفريقية، حيث أصبح من الضروري تنظيم العلاقات التجارية البحرية وتحريم القرصنة بين الطّرفين تسهيلاً للعمل التجاري.

3 ـ بالنسبة للمرينيين ومعاصريهم في الغرب الإسلامي

جمع صاحب المقال عنهم حوالي 500 رسالة ديوانية (مخزنية)[10] تغطّي أحداث الفترة الممتدة بين عام 621هـ / 1224م الذي يمثّل تقريباً بداية انهيار السلطة المركزية الموحدية، وعام 817 هـ/ 1414م أي العام السابق لسقوط سبتة في يد البرتغاليين حيث يبدأ عصر جديد من العلاقات بين العُدوتين.

---

[8] - أذن لي – رحمه الله – بدراسة ونشر رسائل هذا المخطوط .

[9]- لم ندرج هنا المصادر المخطوطة التي استخرجنا منها رسائل محدودة العدد ولا المصادر المطبوعة التي جمعنا ما تفرّق فيها من رسائل، ورتّبنا الجميع ترتيباً زمنياً في الجزء الأول الخاص بالنصوص، بينما أصبحت دراستها في الجزء الثاني في إطار المواضيع الكبرى التي تشير إليها.

[10]- كانت موضوع دكتوراه دولة بعنوان " الغرب الإسلامي من خلال رسائله – القرنان 7 – 8 هـ/ 13- 14م"، نوقشت بكلية الآداب بالرباط سنة 1996، ونشرت في أربعة أجزاء خلال سنتي 2006- 2007 بالرباط تحت عنوان : "الغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هـ، دراسة وتحليل لرسائله" .

كانت هذه المجموعة الأخيرة من الرسائل موضوع دكتوراه دولة نوقشت سنة 1996 تحت عنوان "الغرب الإسلامي من خلال رسائله"، ونقصد بالغرب الإسلامي مجالات الدولة المرينية بالمغرب، وإمارة بني زيان بمنطقة تلمسان إلى نهر شلف، والدولة الحفصية في إفريقية بما فيها إقليما بجاية وقسنطينة، وإمارة بني الأحمر النصرية بجنوب الأندلس خاصة بعد أن انتهت إمارة ابن مردنيش ببلنسية وإمارة بني هود بمرسية.

وهكذا فإن الفترتين اللتين تناولهما موضوع "رسائل موحدية"(جديدة) ورسائل "الغرب الإسلامي" تمثّلان أولاً عصر قوة الدولة المغربية وامتداد نفوذها، وهي القوة السياسية الوحيدة في الغرب الإسلامي بما لها من فعالية خارج المنطقة، ثم عصر ضعف وانقسام هذه الدولة إلى مجموعة دول وبداية الضغط المسيحي على سواحلها. فالبحثان متكاملان ويقدّمان صوراً للمقارنة بين الأوضاع الداخلية وأسلوب التعامل مع نصارى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وبعبارة أخرى كانت الدولة الموحدية هي المحاوِر الوحيد لهؤلاء النصارى، أي أنّها تحاور من موقع قوّة ، ثم تعدّد محاوِروهم في الفترة اللاحقة فضعف موقعهم .

مصادر رسائل "الغرب الإسلامي" متنوعة وخصوصاً من كتب الترسيل لمشاهير الأدباء الأندلسيين أمثال أبي المطرِّف بن عَميرة (المتوفى سنة 658هـ/ 1260م)، وما تبقَّى من رسائله موجود في الخزانة العامة بالرباط في ثلاث قطع ؛ وكذلك ما بقي ممّا جمعه الأديب الكاتب ابن المرابط المرادي في كتابه "زواهر الفِكَر وجواهر الفِقَر" المذكور سابقاً[11]؛ وما أنشأه الأديب الكاتب أبو بكر بن خطّاب الأندلسي المتوفى بتلمسان في محرم سنة 686هـ/فبراير 1287م ، وقد جمع رسائله بعضُ تلامذته في كتاب سمّاه "فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطّاب"، توجد منه نسخة بالخزانة العامة وأخرى بخزانة القصر الملكي بالرباط .

أمّا أهمّ مجموعة من مراسلات القرن الثامن/14م فهي التي أنشأها الوزير الكاتب الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 / 1375م)، وهي تتوزع في ثلاثة كتب : هي "كُنَاسة الدّكان" ، و" نفاضة الجِراب"، وخاصة "ريحانة الكتّاب" التي استخرجنا منها وحدها 120 رسالة ديوانية[12].

هذا بالنسبة لرسائل المصادر المخطوطة والمطبوعة، أما **الوثائق الأصلية** فهي رسائل وعقود توصّلت بها بعض الجهات النصرانية خاصة حكومة بيزا بإيطاليا ومملكة أركون من سلاطين بلدان المغرب؛ الأولى، نشرها ميشيل أماري في الكتاب المذكور سابقاً، وتصل تواريخ بعض رسائله إلى أوائل القرن التاسع/15م بالنسبة للمغرب المريني. ونُشر البعض الآخر من المراسلات الأصلية في مدريد سنة 1941 تحت عنوان (Los Documentos Arabes del Archivo de la Corona de Aragon)، وهي مأخوذة من ذخائر "مكتبة التاج الأركوني" ببلنسية ؛ وقد اعتمدنا - غالباً- في إعادة

---

[11]- كان الاعتماد على شريط للكتاب بالخزانة العامة بالرباط

[12]- اعتمدت على نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية (وبعض النسخ الألأخرى) وقارنتها مع طبعة المرحوم محمد عبد الله عنان التي وجدتها كثيرة الأخطاء.

نشر رسائله التي تهمّنا على نسخ للرسائل المحفوظة في المكتبة المذكورة تجنّباً لأخطاء الطبع الواردة في الكتاب المذكور رغم أنها قليلة نسبياً.

هذه المجموعة الوثائقية الأخيرة هي عبارة عن رسائل صادرة عن سلاطين بلدان المغرب ومصر إلى ملوك أركون، وهي تغطّي الفترة بين الثلث الأخير من القرن السابع وأواخر القرن 8/ 13-14م بالنسبة للمغرب المريني وإفريقية الحفصية، وتتجاوز هذه الفترة بالنسبة لرسائل مصر المملوكية.

ثانياً : ملاحظات حول أجزاء الرسائل

ـ الجزء الأول منها يعرف **بالصدر** إن كانت غير مبتورة البداية، ويشمل عادة الطرف المكتوب عنه ومكانه، والطرف المكتوب إليه ومكانه، والتلميح لمضمّن الرسالة. غير أن النُّسّاخ كثيراً ما كانوا يتدخلون لتعويض اسم الشخص بفلان والجهة بفلانة. ويُذكر أحياناً الخليفة أو السلطان باللقب فقط مثل "أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين" فنفهم أنه يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن، وبالنسبة للناصر بن المنصور تضاف للمرة الرابعة عبارة "ابن أمير المومنين" أو يختصر ذلك كله في العبارة "أمير المومنين بن أمراء المومنين". وبالنسبة للسلاطين المرينيين نجد – أحياناً ـ عبارة "السلطان الكذا بن السلطان الكذا"، ممّا يزيد من متاعب البحث عن حقيقة اسم السلطان المذكور في حالات عدم تأريخ الرسالة، وهي حالات كثيرة.

وفي بعض الرسائل المرينية والنصرية نجد مثل عبارة "إلى محلّ ولدنا" أو "محل أخينا" أو "محل والدنا" ... دون الإفصاح عن اسم المعنيّ، فنفهم أن الغني بالله النصري ـ مثلاً- كان يخاطب أبا الحسن المريني بمحلّ والدنا، ويخاطبه هذا بمحل ولدنا، أما السلاطين المرينيون بعده فكان يخاطبهم السلطان النصري المذكور بعبارة "محل أخينا".

وأما طول أو قِصر صدر الرسالة فيختلف حسب حجم الرسالة نفسها، وحسب موضوعها .

ـ الجزء الثاني من الرسالة يتعلق بالمتن أو **المضمّن**، وهو يبدأ عادة بعبارة مثل "إنا كتبناه إليكم -كتب الله لكم...- من مدينة كذا..." ويختلف حجم الرسالة حسب موضوعها ، فهي طويلة في أخبار الفتوح والبيعات والوصايا للولاة ، وقصيرة نسبياً في رسائل العتاب أو الظهائر أو المراسلات مع النصارى. وقد لاحظنا رسائل مطوّلة متبادلة بين السلاطين المرينيين والسلاطين المماليك وبين هؤلاء والنصريين سلاطين الأندلس .

ـ **تاريخ الرسالة** عادة ما يكون في خاتمتها إذا لم يتدخّل النسّاخ لحذفه أو التعبير عنه بعبارة "وكتب في كذا" مادام هؤلاء لا يجدون أي لون أدبي سجعي في العبارة التي تحدد التاريخ. ويمكن التوصل إلى وضع تاريخ تقريبي للرسالة اعتماداً على مضمّنها وعلى تحديد فترة اشتغال كاتبها لدى السلطة المعنية، وهذا ما فرض البحث عن تراجم كتّاب الرسائل.

ـ العلامة الخلافية أو السلطانية

* يقصد بها توقيعات الخلفاء الموحدين وسلاطين الفترة اللاحقة أو نوابهم المعبَّر عن الواحد منهم ب "صاحب العلامة" . غير أن الكتّاب أو النّسّاخ غالباً ما استغنوا في الكتب الأدبية عن الاحتفاظ

بالعلامة في الرسائل التي استنسخوها رغم ثبوتها في الوثائق الأصلية. ومن المحتمل أن ولاة العهد كانت لهم علامات خاصة بهم، وكذلك بعض ولاة الجهات خصوصاً أولئك الذين كان لهم تفويض في مخاطبة الحكّام النصارى كولاة إفريقية من الموحدين، وأيضاً الأمراء المتمردين على السلطة المركزية.

* بالنسبة لموقع "العلامة" هو في أعلى الرسالة بعد الحمدلة والتصلية بالنسبة للموحدين وورثتِهم الحفصيين الهنتاتيين في إفريقية، وعبارتها بالنسبة للموحدين هكذا "والحمد لله وحده"، وبالنسبة للحفصيين "الحمد لله والشكر لله"[13] . أما بالنسبة لبقية الممالك المعاصرة اللمرينيين فهي في أسفل الرسالة، وتوضع بعدها مباشرة هاء يتصل بها خطّ مدلّى إلى الأسفل ثم ينحرف إلى اليمين قليلاً. وتختلف عباراتها، فهي عند المرينيين إن كانت سلطانية: "وكتب في التاريخ المؤرخ به"، وإن كانت لصاحب العلامة: "وكتب في التاريخ"، وهي عند السلاطين النصريين أو معظمهم: "صحّ هذا"، وعند أمراء تلمسان: "صحّ في التاريخ". ووجد توقيع للأمير علي ولي العهد (وهو أبو الحسن قبل سلطنته) بصيغة: "صح ذلك". وأحدث أبو عنان بعض التعديل في العلامة المعتادة هكذا " وكتب في التاريخ المؤرخ أعلاه"[14]. وقد جعل أحد أمراء سجلماسة المتمردين على السلطة المركزية المرينية في أواسط القرن 8هـ علامته بهذه الصيغة "وكتب في التاريخ المؤرخ".

* بالنسبة لرسم الكتابة كما يظهر من الوثائق الأصلية سواء الموحدية أو اللاحقة هي الكتابة في قطاعات مثلثة في حالة المراسلات العادية[15]، أما إذا كانت نصَّ اتفاقية أو ظهيراً أصبحت أسطرها أفقية عموماً، ويمكن الرجوع إلى القلقشندي في صبح الأعشى الذي يتحدث عن أنواع الخطوط المستعملة لدى كتّاب الإنشاء عامة. أما المداد فيختلف لونه، فتتميز رسائل بني الأحمر مثلاً بمدادها الأحمر كما فهمنا من إحداها.

ثالثاً : أهمّ مضمّنات رسائل المصادر المذكورة

ظل حوض البحر المتوسط وسيلة ربط عبر التاريخ بين جهاته الأربعة منذ العصور القديمة، وسنقصر هنا الحديث (جغرافيا) على قسمه الغربي، ونحصره زمنياً بين القرنين السادس والثامن للهجرة (12 - 14م). فإذا كان دور الضفة الجنوبية لهذا البحر بارزاً عسكرياً وتجارياً في القرون الإسلامية الأولى خاصة أيام الأغالبة والفاطميين فإنه أخذ منذئذ في التراجع التدريجي رغم أنّ الموحدين أوقفوا هذا التراجع مؤقتاً. ويمكننا أن نميّز خلال الفترة المذكورة بين مرحلتين ، مرحلة الوحدة السياسية في ظل الموحدين، ومرحلة التمزق السياسي بعدهم، وبالتالي نجد فترتين متميّزتين بالنسبة للعلاقات بين جنوب وشمال البحر المتوسط.

---

[13] ـ أشار ابن عبد الملك إلى استعمال هذه العلامة من طرف المستنصر، ذكر ذلك ابن الأبار فيما أنشد به مادحا المستنصر (**الذيل** 274/6)

[14] ـ قد يرجع ذلك إلى كونه أول من تسمّى من المرينيين باسم "أمير المومنين"

[15] ـ أي المراسلات الرسمية من غير الاتفاقيات ، انظر النموذج المرفق وهو رسالة كتبت عن السلطان المريني أبي الحسن إلى ملك أركون بيدرو الرابع مؤرخة بيوم 24 ذي الحجة عام 746 [17 أبريل 1346م].

فمن الناحية العسكرية ، نجد مثلاً

1 ـ بالنسبة للوضع في إفريقية الموحدية التي تكاثفت فيها العوامل السلبية خصوصاً أعمال بني غانية المرابطين المتعلقين رمزياً بالسيادة العباسية، فإنّ تحرّكاتهم كانت تتزامن مع انشغال الموحّدين بالعمليات ضد النصارى الإسبان، وينشط هؤلاء الإسبان في حرب "الاسترداد" كلما انشغلت جيوش الموحدين بأحوال الضفة الجنوبية خاصة مع بني غانية في إفريقية. ولا نستطيع أن نسلّم ببراءة النصارى في دعم بني غانية لمعاكستهم للموحدين، سواء كان ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة، فأحد زعمائهم بعد هزيمته في إفريقية عاد إلى ميورقة على ظهر سفينة نورماندية مروراً بجزيرة صقلية، وكانت مملكة صقلية النورماندية على علاقة سئية مع الموحدين خاصة في عصر المنصور. كما أنّ سقوط مركز بني غانية بميورقة في يد الموحدين آخر سنة 1203/599م وصفته رسالة عن الخليفة الموحدي محمد الناصر بأنّه **" فتحٌ في النصرانية وظهورٌ على ممالكها الساحلية، ولَأَخذُ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة أشدّ من رشق النبل** ..."[16]، ذلك أنّ أركون انكشفت سواحلها أمام الأسطول الموحدي، ممّا جعلها تتحرّش بالثغور الموحدية بولاية بلنسية، وتستعدّ للمشاركة مع قشتالة في معركة العقاب سنة 1212/609م .

2 ـ خلال دراسة الرسائل الموحدية المتعلّقة بإفريقية والمغرب الأوسط طرحنا مسألة مدى قوة الأسطول الموحدي بالمقارنة مع الأساطيل النصرانية آنذاك[17]. ويمكن هنا ذكر بعض الملاحظات التي تهمّ هذا الموضوع :

* فبالنسبة لرأي ابن خلدون حول استمرار قوة الأسطول المغربي متفوّقاً إلى منتصف القرن الثامن/14م لاحظنا أنه لا يستند ـ فيما يبدو ـ إلى أسس دقيقة بقدر ما هو تعميم للمسألة، فيبدو أنّ هذا الأسطول كان قويّاً بمقارنته مثلاً مع أساطيل الإسبان الكطلانيين أو مع البرتغاليين أو مع بعض الدويلات النصرانية الإيطالية منفردة لا مجتمعة، بل كانت بعضها تملك منفردة من القطع البحرية أكثر مما يملكه الموحدون ـ على الأقلّ في عهد عبد المومن ـ بغضّ النّظر عن نوعيتها وتقنياتها.

* إن الرسائل الموجّهة من السلطة الموحدية إلى الدويلات الإيطالية تحثّ تجارها على القدوم إلى مراسيها والالتزام بضمان تأمينهم رغم بعض حالات القرصنة النصرانية قرب هذه المراسي من طرف بعض رعايا تلك الدويلات[18]، وهذا ما يطرح التساؤل عمّا إذا كان الأسطول الموحدي يصل ـ أو قادراً على الوصول ـ إلى السواحل النصرانية، خصوصاً بالنسبة للأسطول التجاري إذا أمكن فعلاً التمييز بين التجاري والحربي بشكل واضح.

---

[16]- الرسالة رقم 36 في مجموع بروفنصال

[17] ـ نوقشت هذه القضية في ندوة "البحر في تاريخ المغرب" التي نظمتها "الجمعية المغربية للبحث التاريخي" أيام 24، 25،26 أكتوبر سنة 1996 بكلية الآداب بالمحمدية، وتمّ نشر عروضها في كتاب تحت عنوان " البحر في تاريخ المغرب" .

[18] - رسائل موحدية 1/ الرسائل من رقم 46 إلى 52 ، أو كتاب أماري ميشيل الرسائل عدد 6. 9. 8. 10. 11. 12. 13

* من المعروف أن الإيطاليين مدفوعون إلى البحر بسبب ظروف طبيعة بلادهم خاصة، وقد لعبوا دوراً مهمّاً في الحروب الصليبية لنقل المقاتلين والبضائع عبر البحر المتوسط، وتذكر رسالة موحدية [5] أن البحر بالنسبة للنصارى أصبح " جملاً ذلولاً "، فهم أمّة بحرية، بينما لم يكن للموحدين فيما يبدو نفس الشعور، وربما كان هناك نفور عام من ركوب البحر إلاّ في حالات الضرورة . فالمسألة قد ترجع أساساً إلى الإرادة السياسية ثم إلى الإمكانيات الطبيعية التي تسهّل صناعة السفن، أكثر مما ترجع إلى عوامل أخرى.

ـ هناك ملاحظة أخرى تتعلّق **بالعمل العسكري ضدّ الإسبان ونتائجه** ، أي إلى أيّ مدى كان ذلك معبّراً عن تفوّق عسكري حقيقي؟ ألم يكن في واقعه عملاً يستهدف إرجاع ما سقط من المواقع بيد النصارى في الفترة الانتقالية من حكم المرابطين إلى الموحدين؟ أو على الأقل محاولة إقرار توازن بين الطرفين الموحدي والإسباني؟ خصوصاً وأنّ الإسلام يدعو إلى مسالمة العدو ما لم ينقض عهده ، فالمعروف أن الموحدين لم يتمكّنوا من استرجاع كل المواقع المذكورة. ألم تكن قوتهم قائمة على أساس تصارع وتنافس الإسبان فيما بينهم كالذي وقع في فترة معركة الأرك سنة 591 فلمّا وحّد هؤلاء جهودهم فرضوا هزيمة قاسية على الموحدين في العقاب سنة 1212/609م... هذه الهزيمة التي أجمع مؤرخو الغرب الإسلامي خاصة على أنها كانت السبب في هلاك الأندلس وتمزّق الوحدة المغربية ؟ هذا ما يدفع إلى البحث عن العوامل الداخلية التي كانت وراء الهزيمة وضعف الموحدين والتي ربما ترجع جذورها إلى بداية الدولة الموحدية.

من الناحية التجارية نلاحظ:

1 ـ بالنسبة للفترة الموحدية خصوصاً خلال النّصف الثاني من القرن السادس (12م) أصبح الشمال الإفريقي والأندلس أو ما سمّي بالغرب الإسلامي موحّداً في ظل الدولة الموحدية بدءاً من غرب برقة، بحيث أن الاتفاقات التي كانت توقّع مع الأطراف النصرانية هي باسم السلطة الموحدية أو من طرف الخليفة نفسه، بمعنى أن هذه الجهة كانت الطرف الوحيد المحاوِر للأوربيين خصوصاً الإيطاليين والإسبان مما لا يتيح لهؤلاء المناورة. ورغم قوة الدولة الموحدية فإنها حافظت على عهودها، وكان أطولها اتفاقية المنصور مع بيزا سنة 1186/582م وهي صالحة لمدة 15 سنة، وتتعلق بتنظيم التجارة ومنع القرصنة بين الطرفين. وفي ظل هذا العقد وقبل نهايته وقعت قرصنة في مياه خليج تونس سنة 596/ 1200م على سفن تجار مسلمين، فلم يشأ الموحدون الردّ عليها عسكرياً رغم قدرتهم على ذلك، بل مالوا إلى حلّ المشكلة سلمياً وبطلب تنفيذ العقوبة على المعتدين من طرف حكومة بلادهم. كما نجد المستنصر الموحدي سنة 612 يعقد هدنة مع القشتاليين ويهدّد بالقتل كل من يخرق الهدنة من رعاياه[19].

2 ـ منذ العشرينيات والثلاثينيات من القرن السابع (13م) انقسمت "الإمبراطورية" الموحدية فظهر في الأندلس أمراء مستقلون ومتنافسون، إلى أن انتهى الأمر لصالح أحدهم وهو ابن الأحمر في أقصى الجنوب الذي استمرت إمارته ـ دون غيرها ـ تمثّل السيادة الإسلامية شمال البوغاز مدة قرنين

---

[19]- رسائل موحدية 1/ عدد 83. انظر أيضاً الرسالتين 84. 85

ونصف. وحلّت في المغرب الأقصى محلّ الموحدين دولة بني مرين منذ أواسط القرن السابع، وحلّت محلهم قبل ذلك بقليل في غرب المغرب الأوسط إمارة بني زيان (بني عبد الواد) منذ الثلاثينيات وقاعدتها تلمسان، وفي نفس الفترة استقلت أسرة الولاة من بني حفص الهنتاتيين (وهم من مصامدة الأطلس الكبير) ببلاد إفريقية وإقليمي بجاية وقسنطينة، بل انقسم الحفصيون على أنفسهم منذ أواخر القرن السابع إلى أواخر الثامن حيث تكونت في الإقليمين المذكورين إمارة مستقلة عن سلطان تونس. وهكذا تعددت الأطراف السياسية في الغرب الإسلامي، بل تصارعت معظمها مع بعضها البعض، فسهل على الأطراف النصرانية المناورة في الإطارين الدبلوماسي والتجاري وممارسة أنواع الضغط المختلفة لتسهيل العمل التجاري لصالحها.

غير أن الأطراف النصرانية اختلفت في تعاملها مع المغاربيين (وكذلك مع الأندلسيين)، فبينما تركزت سياسة الكطلونيين (أي مملكة أركَون، مملكة ميورقة، إضافة إلى صقلية تحت حكم أسرة كطلونية) على محاولة الحصول على الامتيازات التجارية تحت أنواع مختلفة من الضغط[20] كانت الجمهوريات الإيطالية الثلاثة (بيزا، جنوة، البندقية) تحاول أن تتوصل بهدوء غالباً مع الأطراف المغاربية لعقد اتفاقات لم تخلُ من امتيازات كانت تحصل عليها غالباً نتيجة حسن تعاملها من جهة، وأملاً في أن تتمكّن من النجاح في منافستها للكطلونيين من جهة ثانية .

وهكذا أمكن عقد اتفاقات سلم وتجارة أدّت إلى إقرار قناصل في بعض المراسي التي يكثر تردّد النصارى عليها وكذلك فنادق لهم وأحياناً أفران وحمّامات مع تحديد الضريبة التجارية، لكن عندما لا يحصل تفاهم بين الطرفين يميل النّصارى إلى وسائل الضغط على المستويين العسكري والتجاري، فمنها :

* تهديد الحكومات النصرانية بمنع قدوم التجار إلى المراسي المغاربية، وبالتالي التأثير سلباً على مداخيل المنطقة مادامت قد أصبحت تعتمد اعتماداً كبيراً على التجارة البحرية بسبب تأثير الاضطرابات على التجارة الداخلية وعلى الفلاحة، في وقت ازدادت فيه أهمية تجارة البحر المتوسط.

* إلحاح الأطراف النصرانية على الملوك المغاربيين من أجل اقتسام أرباح التجارة البحرية التي يمارسها التجار النصارى مع رعايا هؤلاء الملوك. هذا النوع من الضريبة اعُتبر مساساً بكرامة البلاد، وهذا ما كان يجعل من الصعب قبولها في الاتفاقيات أو التلكّؤ في أدائها في حالة الاضطرار إلى قبولها.

* استعمال الزعماء النصارى لقادة المرتزقة كعامل للتأثير في توجيه سياسة البلد الذي يخدمونه، بل والمساهمة في إحداث القلاقل والمناورات داخل القصور. كما استُعملوا منهم أحياناً سفراء بين مخدوميهم وملوك أهل ملّتهم فساعدوا على تسهيل عقد اتفاقات عادة ما تتضمّن امتيازات لصالح التجار النصارى.

---

[20] ـ كانت صقلية من حين لآخر توجّه حملات عسكرية لاحتلال بعض الجزر أو المراكز الساحلية لإفريقية، واعتمدت أركون وميورقة في ضغطهما على إطلاق العنان للقرصنة ضد سفن ومراسي الغرب الإسلامي (راجع على سبيل المثال الرسالة رقم 128 في Documentos Arabes).

* وعندما تفشل عمليات الضغط سلمياً يقع اللجوء إلى أعمال القرصنة الرسمية أوالموجّهة بشكل خفيّ للضغط على البلد المراد الحصولُ منه على اتفاق بامتيازات لصالح النصارى أو تطبيق اتفاقٍ تَلكّأ الطرفُ المسلم في تنفيذه.

* ومن وسائل الضغط أيضاً رفض كراء قطع من الأسطول النصراني للطرف المسلم الذي يرغب فيهللعمل ضدّ طرف آخر هو عادةً مسلمٌ (مغاربي أو أندلسي) إضافة إلى شروط وامتيازات لصالح رجال الأسطول والملك الموجّـه له، حدث مثل هذا في حصار المرينيين لسبتة سنة 709 وفي حصار الزيانيين لبجاية سنتي 715 و 728 [21].

ومن الناحية الدبلماسية:

نلاحظ من خلال مجموعة رسائل موحدية:

ـ حالات عقد **اتّفاقات هدنة** بين الموحدين والإسبان كما حدث آخر سنة 569 [22] مع كل من ليون والبرتغال وقشتالة، الأولى كانت أصلاً في حلف مع الموحدين والثانية والثالثة قبلتا عقد الهدنة بعد عمليات عسكرية موحدية حدثت كردّ فعل على استفزازات جيوش قشتالة والبرتغال النظامية وغير النظامية مستغلّة انشغال الموحّدين بالظروف المغاربية.

ـ ومن حالات الاتصالات الدبلماسية أيضاً ما حدث أيام الخليفة المرتضى الموحدي **مع البابا** إينوصان الرابع بشأن تغيير بعض مبعوثيه باعتبارهم ليسوا في مستوى التمثيل الدبلوماسي المطلوب[23].

ـ وبالنسبة للعصر المريني نجد رسالة من السلطان يعقوب المنصور بتاريخ سنة 681 [24] إلى ملك فرنسا فليب الجسور(Le Hardi) يدعوه إلى دعم الملك الشرعي في قشتالة الفونسو العاشر(1254 - 1284م) ضد تمرّد ابنه سانشو، ويعده بالدعم في هذا الاتجاه ومساعدته على تصفية الجوّ بينه وبين ملك قشتالة .

ـ أما بالنسبة للرسائل المرينية الموجّهة إلى ملك أركون فإنها تذكر في أكثريّتها علاقات الودّ والصداقة، بل والتحالف أحياناً خصوصاً ضدّ قشتالة وأحياناً ضد غرناطة كما حدث خلال احتلال هذه لمدينة سبتة في مطلع القرن الثامن، حيث عُقد تحالف مريني أركوني من أجل حصار المدينة واسترجاعها. أما الإشارات التجارية في هذه الرسائل فهي كثيرة .

وهكذا ـ ورغم تكرّر حالات القرصنة الكطلونية ـ فإنّ السياسة العامّة الأركونيين ظلّت تحاول الحفاظ على العلاقات الودّية التي تمكّنها من كسب رهان المنافسة التجارية مع المدن الإيطالية التي كانت تتجنّب إثارة المشاكل مع المسلمين بغية الحفاظ على الامتيازات التجارية وما يرتبط بها من تمثيل قنصلي ورعاية الرعايا الأجانب المقيمين في مدن المراسي. وكان الخاسر الأكبر تجارياً هم

---

[21] ـ راجع " الغرب الإسلامي من خلال رسائله" القسم الأول (دراسة تاريخية)ً 85ـ86، 122، 123

[22]- رسائل موحدية، 1/ عدد 29

[23]- رسائل موحدية 1/ عدد 126

[24]- الغرب الإسلامي ، الرسالة رقم 160 (أطروحة مرقونة)

القشتاليون الذين تكررت اصطداماتهم العسكرية مع المسلمين سواء مع مملكة غرناطة أو مع مدن وجهات الثغر المريني شمال المضيق.

وهكذا فإنّ من جملة ما تميّزت به الفترة المذكورة بالنسبة للنصارى - خاصة الإسبان والإيطاليين – أنّهم أصبح لهم دور أساسي في التجارة البحرية مع المغاربيين إضافة إلى القرصنة ضدهم ، ويتبيّن الفرق الشاسع بين وضع الموحدين المتميّز سواء بالنسبة للوضع الداخلي أو بالنسبة للعلاقة مع النصارى، وبين نجاح هؤلاء لاحقاً في انتزاع الامتيازات التجارية من الدول المغاربية - وكذا إمارة غرناطة - لتعدّد المحاورين الإسلاميين، ونظراً للعجز البحري لدى الممالك المغاربية من جهة وتعدد المشاكل الداخلية من جهة أخرى والتي تجعل اعتمادهم على مداخيل التجارة البحرية أكثر ضماناً من غيرها.